

العثمانيون البسفور ودخلوا القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، حتى إذا كان عام ١٥١٧ دخلت في حوزتهم سورية ومصر وبلاد العرب وأصبحت فارس مملكة مستقلة تحت حكم الصفويين (١٥٠٢ - ١٧٣٦) بينما أسس بأثر وهو من ولد تيمور - امبراطورية التتار العظيمي والمند ، وظلت قوية الشوكة تحت خلفائه وخاصة أكبر وأورنجزيب (١٥٢٥ - ١٧٠٧)

أما الحوادث السياسية التي أجمناها آنفاً فمنها ما لم يتفصيل في سلب هذا الكتاب ؛ على حين أن غيرها لن يكون نصيبه منا سوى الإشارة الموجزة والنظرة العابرة . ولما كانت الآراء التي انتشرت في الأدب العربي شديدة الارتباط بتاريخ الناس ولاسيبيل الى فهمها بعيداً عن الحوادث الخارجية التي نشأت فيها ، فقد وجدت نفسى مضطراً إلى الأسهاب في بعض النواحي التاريخية حتى يتبين القارئ الحقائق المهمة من وجهة نظرنا الخاصة . كما سيرى أن ليس من إطناب في الكلام عن المصور المتقدمة السابقة (٥٠٠ - ٧٥٠ م) . خاصة إذا علم أن هذه تصد بحور التاريخ العربي ومركزه . وقد بانغت الحضارة الاسلامية أسمى شأوها خلال القرنين التاليين لهذا التاريخ وإن أخذ العرب يتراجعون إلى الوراء سريعاً . وقد طمس الهجوم التتارى - في الغالب - معالم حياتهم الأهلية وإن ظلوا متمسكين في سورية ومصر تحت الحكم التركي بأهداب ثقافتهم كما نراهم يستميتون في الكفاح باسبانيا ضد النصرانية . وفي أيام ازدهار الدولة العباسية كان أثر العرب الخالص Pur sang في الأدب الذي حمل اسمهم ضئيلاً قياسياً ؛ ولم ألتزم جادة القياس الوطنى والاستثنائية جميع الأجانب والمولدين الذين كتبوا بالعربية . أما الفرس الذين ألفوا حتى يومنا هذا استعمال الضاد في كتاباتهم الدينية أو الفلسفية فيمكن القول بأن عملهم لا يصور تاريخ الفكر العربى ؛ ومن ثم كان من الضرورى دراستها مما كي نصل إلى الغاية المقصودة . ولكن ماذا يكون موقفنا إزاء هؤلاء المؤلفين الكثيرين الذائى الصيت الذين لبسوا عربياً ألقاحاً ولا فرساً خالصين ، بل هم مزيج من الجنسين . أترانا نسترجع أنسابهم ونحاول أن نزن أى دم الجنسين أرجح كفة ؟ إن مثل هذه المحاولة بطول أمدها ، وليس من ورائها جدوى . والمؤكد أنه بعد العصر الأامرى لا يستطيع وضع حد فاصل صحيح بين العناصر الأهلية والأجنبية الموجودة في الأدب العربى ، فقد امتزج كل منها

## تاريخ العرب الأدبى

للأستاذ رينولد نيكلسون

المستشرق الانجليزى

المدخل لتاريخ العرب

- ٣ -

٥ - من الفتح المغولى الى اليوم (من ١٢٥٨ -)

انتهى عصر الخلافة بمقوط بغداد عام ١٢٥٨ م في يد المغول الرحل الذين كانوا تحت زعامة هولاكو . وما كادوا يتقدمون إلى الأمام حتى صدم المالك المبرون وردوم على أعقابهم إلى فارس التي اعتنقوا فيها الاسلام بعد زهاء خمسين عاماً ، أما الخانات خلفاء هولاكو فقد حكموا في فارس ثم أغار على آسيا الغربية فريق من البرابرة بقيادة تيمور واندمعوا كالآتى المزيد ، ونشروا الفساد والفسوى في ربوعها (١٣٨٠ - ١٤٠٥ م) وإذ ذلك تفككت رابطة الاسلام من الناحية السياسية . وفي هذه الفوضى الضاربة بأجراتها نشأت ثلاث امبراطوريات اسلامية . ففي سنة ١٣٥٨ عبر الأتراك

إلى الاستفراق ، وقد أتبني خيرى وشرى ، وماها إلا مسكنة وقذارة وغرور

لقد آن لكم أن تقولوا : ما بهمنى عدلى ، إن العادل يقدر شرراً ولما أشتعل

لقد آن لكم أن تقولوا : ما بهمنى رحمتى ، أفايت الرحمة سلباً يمسر عليه من يحب البشر . ورحمتى لا ترفعنى على الصايب

أقلتم مثل هذا وناديتم به ؟ ليتنى سمعتم تهتفون بمثله ! إن ما يرفع عقبرته على السماء إن هو إلا غرورك لخطاياكم ،

إن هو إلا حرصكم حتى في خطاياكم

أين هو اللب الذى تمتد اليكم ليظهركم ؟ أين هو الجنون الذى يجب أن يتولى عليكم ؟

هأنذا أتبتكم من الانسان المنفوق إن هو إلا ذلك اللب وذلك الجنون ( يتبع )

نيكلس فارس

إحداها حراء والثانية بيضاء والثالثة دكناء ، ثم رن صوت من  
خاف السموات يقول « يا قيل : اختر لنفسك وقومك من هذا  
السحاب » فاختار الرسل السوداء ظناً منهم أنها تعجّ بالماء ،  
وأنها أكثر السحاب فيضا ، وحينذاك أنشد الصوت :  
« خذها رماداً رمداً لا تدع من عاد أحداً  
لا والداً ترك ولا ولداً إلا جملته همدا »

ثم ساق الآله السحابة السوداء حتى حوت فوق أرض  
عاد فانبعث منها إذ ذاك ريح صرصر عاتية أفتت الناس جميعاً  
إلا فئة <sup>(١)</sup> قليلة لبست نداء هود وأجابته إلى دعوته ونبذت  
عبادة الأوثان . وإذ ذاك ظهر بطبيعة الحال وعلى ممر الزمن شعب  
آخر يدعى بقوم عاد الثانية وكان مقره اليمن في مملكة سبأ ؛ وإن  
السد العظيم سد مأرب لينسب إلى ملكهم لقمان بن عاد الذي  
تحاك حوله طائفة من الخرافات ، وكان يكنى بنى النور إذ أوحى  
إليه أنه سيممر ويفنى سبعة أفسر كلما مات واحد خلا إلى آخر  
وفي شمال بلاد العرب بين الحجاز وسورية سكن قوم ثمود  
الذين ورد ذكرهم في القرآن <sup>(٢)</sup> بأنهم كانوا يسكنون مزارات  
تحتوها في الجبال . ولا شك أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان  
يجعل طبيعة هذه البيوت المنحوتة في الصخور ، والتي لا تزال  
آثارها قائمة في الحجر (مدائن صالح) على مسيرة أسبوع من  
شمال المدينة ، والتي تدل عليها النقوش النبطية <sup>(٣)</sup> التي عثر عليها  
في القبور . وقد أخطأت ثمود كما أخطأت عاد من قبل .  
وتشابهت الهاتين ، فهزأت ثمود من نبيها صالح وأبت أن تعطيه  
أو يأتي بمعجزة خارقة ، فأطاع لهم صالح من الصخر ناقة ضخمة  
وفصيلها ، وأمر ثمود ألا تمس بسوء ؛ بيد أن أحد الأئمة الأشرار  
واسمه « قدار الأحمر » عقرها وذبحها ( فأخذتهم الرجفة )  
فأصبحوها في دارهم جاثمين ) وصارت <sup>(٤)</sup> العرب تقول لكل  
من باء بجرم كبير ، وحظ أغبر « أنكذ حظاً من عاقر الناقة  
أو أحر ثمود » وينبغي أن نشير إلى أن ديودور الصقلي وبطليموس

بالآخر امتزجاً قويا . وإذا كان لا بد من التمييز بينهما إلى أبعد  
حد مستطاع ، فلا بد لنا من اتباع طريقة ضيقة واهية في عرض  
التاريخ الأدبي إذا أصررنا على اعتبار كل منهما منفصلاً عن الآخر

## الفصل الأول

### سبأ وصمير

قد يمكن القول بأن تاريخ العرب يبدأ بما نعرفه عن أهل  
سبأ ، ولكن خطوة تمهيدية ينبغي لنا أن نلمّ ببعض الأجناس  
التي تعرض علينا صورها في الأساطير والقصص ، والتي يعتبرها  
المؤرخون السلون السكان الأصليين للبلاد . ومن بين هؤلاء  
قوم عاد وحمود ، وأولئك الذين طالبا ورد ذكرهم في القرآن مثلاً  
للكبرياء والجبروت اللذين أديا بهم إلى التهلكة . وكان موطن  
« عاد » أرض حضرموت التي تتاخم بلاد اليمن على حدود  
الصحراء الهامة بالأحقاف . ولا يستطاع الجزم أم من الجنس  
الهابي من سلالة الأراميين الذين أخضعهم وأبادهم الغزاة الغيرون  
على بلادهم من الشمال أم أنهم — كما يقرر هومل <sup>(١)</sup> — ممثلو  
ثقافة غير سامية خلفت إرم ذات العباد <sup>(٢)</sup> ، تلك الجنة الأرضية  
التي بناها « شداد » أحد ملوكهم . وإن قصة هلاكهم لتروى  
على النمط التالى <sup>(٣)</sup> : ذلك أنهم كانوا جبارين ضخم الأجناس ،  
يبسدون الأصنام ويقترفون شتى الموبقات ، فلما بث الله فيهم  
نبيه « هودا » نصح لهم أن يتوبوا عما اقترفوه من الأثام  
فقالوا له : ( يا هود ما جئتنا بيينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك  
وما نحن لك بمؤمنين ، إن نقول إلا اعتراك بهض آلهتنا بسوء ) <sup>(٤)</sup> .

ثم نزل حط شديد بأرض عاد فأرسلوا بمض ردهم إلى مكة  
ليصلوا عسى أن ينزل القطر ويستقوا ، وإذ بانف رسلهم مكة  
لقبهم أمير المملقة « معاوية بن بكر » بالبشر والترحاب ، ومدت  
لهم الموائد ، فشربوا الخمر ودارت بالدفوف جاريتان ذواتا غناء  
شجى تسميان بالجرادتين ، فألهام ذلك عما جاءوا من أجله شهراً  
كاملاً ، فلما حان وقت أوبتهم قام أحدهم ليصلى ، فلم يكذب ينهى  
من صلاته حتى حلت في السماء ثلاث سحبات مختلفة الألوان

(١) Die Namen der Säugethiere bei den Südsemilischen Völkern , P. 343 seq

(٢) راجع تفسير الطبري ج ١ ص ٢٣١ ، وما كتبه O. Loth في

Z. D. M. G. في المجلد ٣٥ ص ٦٢٦ وما يليها

(٣) راجع تاريخ الطبري ج ١ ص ٢٣١ والصور رقم ٧ ، ١١ ،

٤٦ ، ٤٦ من القرآن (٤) سورة هود : ٥٢ ، ٥٤

(١) هذه الفئة القليلة التي أشار إليها المؤلف من بنو اللوذية الذين  
ذكرهم الطبري فقال «... لإجمعه عمداً ، إلا بنى اللوذية الهدي » (الترجم)  
(٢) يشير المؤلف إلى قوله تعالى ( واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد  
وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتتخون من الجبال يرتاء ) (الترجم)  
(٣) Doughty : Documents epigraphiques recueillis dans  
le nord de l'Arabie , P. 12 suiv

(٤) إشارة إلى قوله تعالى ( قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره  
قد جاءكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض  
الله ولا تمسوها بسوء فإخذكم عذاب الله ) (الترجم)

عمان ؛ ومنذ القرن العاشر قبل الميلاد كانت لهم دراية بالخليج الفارسي حيث كانوا ييممون شطرمصر يبيعون لفراعتها وأصرائها بضائعهم ، وقد كانت صعوبة الملاحة في البحر الأحمر سبباً في تفضيل الطريق البري للتجارة بين اليمن وسورية ، وكانت القوافل تقوم من « شبوت » في حضرموت وتذهب إلى مأرب عاصمة سبأ ، ثم تتجه شمالاً إلى مكسربة ( مكة فيما بعد ) وتظل في طريقها من بترأ حتى غزوة المطلة على البحر الأبيض المتوسط (١)»

وظل رخاء السبئيين قائماً حتى أخذت التجارة الهندية تهجر البر وتملك عبر البحار على طول شواطئ حضرموت وخلال مضيق باب الزنب ، وكانت نتيجة هذا التغير — الذي يظهر أنه حدث في القرن الأول للميلاد — أن أخذت قوتهم تتضعف شيئاً فشيئاً ، كما أن جزءاً كبيراً من السكان اضطار للبحث عن مساكن جديدة في الشمال ، ومن ثم أقفرت مدنهم ونضبت العيون المائية ، وسنرى حالاً ، كيف بلورت القصة العربية نتيجة انحطاطهم الهائل في حقيقة واحدة تلك هي انفجار سد مأرب

وإن انحاء السبئيين قد أدخلت الطريق لظهور جماعة من نفس الجنس يسمون بالحيريين أو كما يسميهم المؤلفون القدامى Homeritoe وتقع بلادهم بين سبأ والبحر ، وتحت حكم ملوكهم المعروفين بالتبابعة أصبحوا قوة يرهب جانبها في الجنوب من بلاد العرب . وظل عظم نفوذهم — ولو ظاهرياً — على القبائل الشمالية حتى القرن الخامس بعد الميلاد حينما تار الأخيرون تحت زعامة كليب ابن ربيعة ، وأزالوا قوة اليمن المسيطرة عليهم في واقعة تعرف بواقعة « خزازة » (٢) ولم يفلح الحيريون كما أفلاح السبئيين فان موقعهم البحري جعلهم عرضة للغارات كما كان جذب البلاد من السكان مضمناً لقوتهم الحربية . وقد قام الأحباش — وأصلهم من مستعمري اليمن — بمحاولات عدة لتثبيت أقدامهم ، وكانوا يتخذون عادة حكماً قد نفاهم أمراء وطنيون ، ومن أشهر الولاة الأحباش « ابرهة » الذي سنقص خبر مهاجته الفاشلة لمكة في موضعها الخاص ، وانتهى الأمر بأن وقعت امبراطورية حير أخيراً تحت حكم فارس ولم تقم لها قومة سياسية مدة قرن من الزمان قبل ظهور الاسلام

ترجمة حسن مجشي

قد أشارا إلى وجود آل نمود ، أما قوم عاد فلا نجد لهم أثرًا يذكر في المصور التاريخية ، على حين أن نمود قد عاشوا حتى القرن الخامس الميلادي ، وكان أباطرة الدولة البيزنطية يستخدمونهم كفرسان نموديين Equites Thamudeni في جيوشهم

وبجانب عاد ونمود زى المهالقة مدرجين بين أهل الفترة ، وقد جاء في علم الآثار العربية الاسلامية ما نبنيء عن وجود عدة أقوام سلفوا في عصر بعيد ، كالكنمانيين والفلسطينيين . وإنما لنسمع أن مقر المهالقة كان في تهامة مكة ، وفي بعض أنحاء أخرى من شبه الجزيرة . ويجب أن نشير أخيراً إلى قبائلي طسم وجديس اللتين لم يدون عنهما شيء إلا حقيقة هلكهما ، والدواحي التي أدت إلى ذلك . وإن القصص الخرافية التي أشارت إليهما لا تخلو من لذة بالنسبة لوجودهم في المجتمع العربي القديم

\*\*\*

أما تاريخ الفتحطانيين (١) — أو عرب الجنوب — قبل الاسلام فهو تاريخ شعبين : السبأ والحيري اللذين خلفا زعماء الامبراطورية العربية الجنوبية التي امتدت من البحر الأحمر حتى الخليج الفارسي . وسبأ ( أو شبا كما هي في العهد القديم ) تستعمل خطأ إذا قصد بها كل بلاد اليمن Arabia Felix ، على حين لم تكن سوى إقليم منها وإن كانت بلا جدال أقوى شكيمة وأعظم أهمية من كل الممالك والأقاليم التي ورد ذكرها في كتابات الأغريق والرومان القدامى ؛ ومهما بولغ في عظمتها وثرائها فن الحق أن سبأ هذه كانت ذات مركز تجاري ممتاز قبل ظهور المسيح بمدة قرون (٢) . « ولقد قامت السفن منذ زمن بعيد تمخر عباب المياه بين موانئ بلاد العرب الشرقية وبين الهند عملة بالبضائع ، وكانت منتجات الأخيرة وخاصة الطيب والبخور والحيوانات النادرة ( كالتمردة والطواويس ) تنقل إلى ساحل

(١) فيما يتعلق بالفروش السبئية والعربية الجنوبية يمكن لقاريء أن يقرأ ما سيكتبه J. Tkatsch في مقالة « سبأ » بدائرة صارف الاسلام فيها معلومات قيمة ، ويشير الكاتب فيها إلى أهمية المكتشفات الحطية التي أماط التام عنها F. Glaser الذي جمع في خلال أربع رحلات (٨٨٢ — ١٨٨٤) ما ينيف على ٢٠٠٠ مخطوط . راجع أيضا :

P. Nielsen: Handbuch der Altarabischen Altertumskunde. Vol. I ( Copenhagen and Paris 1927)

(١) إن أقدم وثيقة تاريخية يمكن الإشارة إليها وجدت مكتوبة بالحط السبأري الأشوري وتقرأ في تاريخ الملك سرجون ٧١٠ ق م . « لقد استلمت جزيرة فرعون ملك مصر وشحية ملكة بلاد العرب وأميرة السبأ من الذهب والطيب والعييد والحبل والابل » وأميرة مرادفة لأمير وهو لفظ تسمى به كثير من ملوك سبأ

(١) A. Müller: Der Islam in morgen und Abendland, P. 24

(٢) ومع ذلك فإن ذلك يقول (في اللغات الجنس Funar Mo'ollaqat ج ١ ص ٤٤) « إن الأخبار التي تنفي أن كليبا كان يقود فرسان ربيعة إلى نزال قوى اليمن للنجمة ليست تاريخية مطلقاً